- ٣ -

أدَبُ سَيْفِ الدّولة

كان سيف الدولة أديباً شاعراً يحب جيد الشعر ويطرب لسماعه ويروى له شعر جميل يدل على شاعرية موهوبة ومن محاسن شعره وصفُه قوسَ قُزَحَ وقد أبدع فيه . وإن كان البعض قد نسبها لأبي الصقر القبيصي [١] .

وساقٍ صَبيحٍ للصَّبُوحِ دعوتُهُ ... فقام وفي أجفانهِ سِنَةَ الغَمْضَ
يطوفُ بكاساتِ العُقارِ كأنْجُمٍ ... فمنْ بينِ مُنقضٍ علينا ومُنْفَضَّ
وقد نَشَرَتْ أيدي الجَنُوبِ مطارِفاً ... على الجود كنا والحواشي على الأرضَ
يطرِّزُها قوسُ الغمامِ بأصفرٍ ... على أحمَرٍ في أخضرٍ تحتَ مُبْيَضَّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلتْ في غَلائِلٍ ... مُصبّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ [٢]

ومن شعره الجميل في صباه قوله :

أُقَبِّلُهُ على جَزَعٍ ... كشُرْبِ الطّائرِ الفَزِعِ

---

(١) لأبي الصقر القبيصي ذكر في الفهرست ويفهم مما قيل فيه انه كان من غلمان أبي عثمان الدمشقي وكان يقرأ عليه المجسطي . وفيات الاعيان (٤٠٢) .
(٢) اليتيمة (١ / ٣١) .

رأى مـــاء فأطمعه وخافَ عواقِبَ الطمعِ
وصادفَ فرصَةً فدَنا ولمْ يَلْتَذَّ بالجَزَعِ [1]

وأغلب المأثور من شعره غَزَلٌ وسبب ذلك فيما أعتقد راجع لحبه لفتاة بيزنطية سابية الحسن والجَمال ، وقد ذكرها الثعالبي فقال : « ويحكى أنه كانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم لا يَرى الدنيا إلاّ بها ، ويشفق من الريح الهابّة عليها ، فحسدتْها سائرُ حظاياه على لطف محلها منه وأزمَعْنَ إيقاع مكروه بها من سم أو غيره . وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها وقال [2] :

راقبتْني العيونُ فيك فأشفقـ تُ ولم أخلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيت العَذُولَ يحسُدُني فيـ ـك مُجِدّاً يا أنفَسَ الأعْلاقِ
فتمنيتُ أن تكوني بعيـــداً والذي بَيْنَنا من الوُدّ باقي
رُبَّ هجْرٍ يكون من خوْفِ هجرٍ وفِراق يكون خوفَ فُراقِ

ويقول ابن خلكان إنه رأى أن هذه الأبيات المذكورة بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري ولا يرجّح نسبتها لأحد منهما [3] .

وله غزل رقيق أيضاً كقوله [4] :

تجَنّى عليَّ الذّنبَ والذنبُ ذنبُهُ وعاتبَني ظُلْماً وفي شَقّه العُتْبُ
وأعرضَ لمّا صارَ قَلْبي بكَفّهِ فهلاّ جفاني حينَ كانَ لي القلبُ
إذا برَمَ المولى بخِدْمَةِ عبْدِهِ تجنّى له ذَنْباً وإنْ لم يكن ذنبُ

(١) اليتيمة (١ / ٣٢) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ٣٢) .
(٣) وفيات الاعيان (٢ / ٤٠٢) .
(٤) اليتيمة (١ / ٣٢ – ٣٣) .

ومن بديع غزله قوله [1] :

قدْ جَرَى في دمْعِهِ دَمُهُ ... فإلى كمْ أنتَ تظْلُمهُ ؟
رُدَّ عنهُ الطّرْفَ منكَ فقَدْ ... جَرَحَتْهُ منْكَ أسهُمُهُ
كيفَ يَسْتَطيعُ التجلُّدَ مَنْ ... خَطَراتُ الوَهْمِ تُؤلِمُهُ ؟

ومن بديع خياله قوله [2] :

كأنّما النّارُ والرَّمادُ معاً ... وضَوؤُها في ظلامه يُحْجَبُ
وجَنّةٌ عذْراءُ مَسّها خجلٌ ... فاسْتترتْ تحتَ عنبرٍ أشْهَبُ

وقد قال في أخيه ناصر الدولة عن وحشة جرت بينهما ، وقد كان ناصر الدولة شديداً عليه لأنه يخشاه ويتوجس منازعته في إمارة الموصل :

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها ... وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ
ولم يكُ بي عنها نكول وإنمـا ... تجافيت عن حقي فتم لك الحقّ
ولا بدّ لي من أن أكون مصلياً [3] ... إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق [4]

وقد أنكر بعض المؤرخين جل الأشعار المنسوبة إلى سيف الدولة . قال ابن النديم فينسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة لا يصلح منها له غير بيتين ، ذكر أبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه — وهو جد الوزير أبي القاسم المغربي — أنهما لسيف الدولة — ولم يعرف له غيرهما . وكتب بهما إلى أخيه

---

(١) المرجع نفسه (١ / ٣٣) .
(٢) المرجع نفسه (١ / ٣٤) .
(٣) المصلي : من الخيل الذي يتلو السابق في الحلبة .
(٤) اليتيمة (١ / ٣٣) .

ناصر الدولة وقد مد يده إلى شيء من بلاده المجاورة له من ديار بكر وكانت في يد أخيه .

لستُ أُجفو إذا جَفَيتَ[1] ولا أتـ ـرُكُ حقّاً عليَّ في كلّ حالِ
إنّما أنتَ والدٌ والأبُ الجا في يُجازى بالصَّبر والاحتمالِ[2]

ونقرر أن سيف الدولة كان شاعراً رقيقاً لا يخلو شعره من عاطفة وحسّاسيّة وأغلب شعره الذي وصلنا يكاد لا يتعدى ما رواه الثعالبي في اليتيمة وجلّه في الغزل ولم يؤثر لسيف الدولة ديوان . وعلى ذلك يعد شاعراً مقلاّ ، وإن كان الثعالبي في حديثه عن شعره يُعَنْوَنُ له بقوله : « ملح من شعر سيف الدولة » وهذا قد يدل على أن له شعراً كثيراً غير ما ذكره صاحب اليتيمة .

وبالإضافة إلى شاعرية سيف الدولة عرف عنه أنه كان صاحب نظرات نفاذة ومعايير فنية في النقد وكان ذا باع طويل في العلم والأدب وذا مقدرة كبيرة على إدارة المجالس الأدبية وتوجيه النقد الصائب .

ولقد كان مجلسه في حلب قليل النظير فالشعراء والأدباء في مجلسه كانوا يثيرون الموضوعات المتنوعة ويسهم فيها سيف الدولة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ويجزل العطاء لمن أجاد ، فحيناً يتذاكرون الشعر القديم وتارة يسألهم إجازة شعر ومرة يناقشهم في مسألة نحوية أو مسألة لغوية حسبما اتفق[3] .

استنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها :

---

(١) جفيت مثل جفوت ـ فهي يائية وواوية .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١٥٢) .
(٣) فيض الخاطر (٤ / ٧٦) .

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قَدرِ الكرامِ المكارم

وكان معجباً بها كثير الاستعادة لها فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف كأنكَ في جَفْنِ الرَّدى وهْوَ نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهُكَ وضّاحٌ وثغركَ باسمُ

فقال الأمير :

قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتُقِدَ على امرىء القيس بيتاه :

كأنّي لم أركبْ جواداً لِلَذّةٍ ولم أتبَطّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزّقّ الرّويّ ولم أقُلْ لخيلي كرّي كرة بعد إجفالِ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين وكان ينبغي لأمرىء القيس أن يقول :

كأنّي لم أركبْ جواداً ولم أقلْ لخيلي كري كرة بعد إجفالِ
ولم أسبأ الزّقّ الرويّ للذّةٍ ولم أتبطنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسمُ
تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

فقال : أيد الله مولانا ان الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ أمرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته

وتفاريقه لأنه هو الذي أخرجه من الغَزَليّة إلى الثوبية وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد رقرن السماحة وشراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية : فقلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها .

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار [1] .

وهذا يدل على أن سيف الدولة قد اقتنع بحسن تخريج المتنبي وأن الأمير يتمتع بذوق فني رفيع .

وجاء في اليتيمة أن سيف الدولة بعث إلى الشاعرين أبي بكر وأبي عثمان الخالديين وكانا من خواص شعرائه رصيفة ووصيفاً ومع كل واحد منهما بدرةٌ وتختٌ من ثياب مصر فقال أحدهما من قصيدة طويلة :

لم يَغْدُ شكرُكَ في الخلائقِ مطلقاً ... إلاّ رمالَكَ في النّوالِ حبيسُ
خوّلتَنا شمساً وبدراً أشرقتْ ... بهما لدينا الظلمة الحِنْديس [2]
رَشَأٌ أتانا وهْوَ حُسْناً يوسُفٌ ... وغَزَالَةٌ هيَ بهْجَةً بِلْقِيسُ
هذا ولمْ تَقْنَعْ بذاكَ وهذه ... حتى بعثتَ المالَ وهْوَ نَفيسُ
أتَتِ الوصيفةُ وهي تحمل بِدْرَةً ... وأتى على ظهرِ الوصيف الكِيسُ
وبَرَدْتَنا ممّا أجادتْ حَوْكَهُ ... مِصرٌ وزادتْ حُسْنَهُ تنّيسُ [3]

---

(١) اليتيمة (١ / ٢١ ــ ٢٢) .
(٢) الحنديس ــ أصله الحندس ــ بكسر الحاء والدال جميعا ــ والحندس ــ الليل الشديد الظلمة .
(٣) تنيس ــ مدينة قديمة بمصر اشتهرت بالنسيج .

فغدا لنا من جودك المأكولُ والـ مَشْرُوبُ والمَنْكُوحُ والمَلبوسُ

فقال له سيف الدولة : أحسنت إلاّ في لفظة « المنكوح » فليست مما يخاطب بها الملوك . وهذا من عجيب نقده [1] .

وكان الأمير يعرف درجات الحُسْنِ في فن شعرائه وكان يميل إلى أبي العباس النامي ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي فقدمه عليه فغاظ ذلك أبا العباس وعاتب الأمير لماذا يفضل عليه المتنبي ؟ فأمسك عن جوابه وعندما ألحّ عليه مطالبه بالجواب قال لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كلّ فتح غيرَ مفتخرٍ وقد أغَذَّ إليْهِ غيرَ مُحْتَفِلِ

وكان السّرّي الرفّاء يحسُد المتنبي على منزلته الرفيعة عند الأمير فطلب منه قصيدة من غرر قصائد المتنبي ليعارضها له ويتحقق أنه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها :

لعينِكَ ما يَلْقى الفُؤادُ وما لَقي وللحُبِّ ما لمْ يبقَ منهُ وما بَقي

قال السريّ : فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة ، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكني رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه :

إذا شاءَ أنْ يَلْهو بلِحيَةِ أحمقٍ أراهُ غُباري ثمَّ قالَ لهُ الْحَقِ

---

(١) اليتيمة (١ / ٢١) .

فقلت : والله ما شاء إلاّ إلى هذا وأحجمت عن معارضة القصيدة [1] .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كثيراً ما كان يتمثل بأبيات قديمة وتعجبه أبيات يرددها أو قافية يستملحها أو معنى يستجيده فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها فمرة مثلاً ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف وهما :

أَمِنّي تخافُ انتشارَ الحديثِ وحَظّيَ في سَتْرِهِ أوفَرُ
ولَوْ لمْ أَصُنْهُ لِبُقْيا عَلَيْـ ـكَ نظَرْتُ لنفسي كما تنظرُ

واستحسن المعنى فأرسل رسولاً مستعجلاً لأبي الطيب المتنبي ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رِضاكَ رِضايَ الّذي أُؤثِرُ وسِرُّكَ سِرِّي فَما أُظْهِرُ [2]

وجاء في كتاب الكنايات للجرجاني : سمعت الطبري يقول كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بحلب فدخل عليه ابن عم له فاستبطأه الأمير وقال له أين كنت اليوم وبما اشتغلت فقال له : أيد الله مولانا حلقت رأسي وأصلحت شعري وقلمت أظافري فقال له : لو قلت أخذت من أطرافي لكان أوجز وأبلغ [3] .

وقال ابن خالويه : دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي : أقعد ، ولم يقل أجلس فتبينت بذلك أعلاقه بأهل الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند

---

(١) خزانة الادب ــ ابن حجة ــ ص (٢٣١) .
(٢) فيض الخاطر ــ أحمد امين (٤ / ٧٥) .
(٣) أعلام النبلاء ــ محمد راغب الطباخ ص (٢٨٥) .

أهل الأدب أن يقال للقائم أقعد وللنائم والساجد أجلس [1] .

ومما يدل على ثقافة سيف الدولة الواسعة وعنايته الكبيرة بالأدب وتوجيهاته النقدية الصائبة أنه كتب إلى أبي عبد الله الحسين بن خالويه يسأل عن دمشق هل يقال فيها دِمَشْقَةٌ أم لا ؟ فأجابه دِمِشْقٌ اسم هذه المدينة ليست عربية فيما ذكر ابن دريد ، إنما هي مُعَرَّبَة ولا يقال إلاّ بغيرها . فأما الدمشقة فالسرعة في المشي يقال دَمْشَقَ يُدَمْشِقُ دَمْشَقَةً ودِمْشاقاً إذا أسرع — وكل سريع دَمْشَقَ .

فأعاد سيف الدولة الرقعة وقد وقع فيها : مر بنا في كتاب قال عبد الرحمن ابن حل الجمحي وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق :

أبْلِغْ أبا سُفْيانَ عنّا بأنّنا ... على خَيْرِ حالٍ كانَ جيشٌ يكونُها
وأنّا على بابَيْ دِمَشقَةَ نرتمي ... وقد حان من بابَيْ دِمَشْقَةَ حَينُها

وفي الرقعة أيضاً أن الناقة السريعة يقال لها دَمْشَقٌ والمرأة السريعة اليد في العمل .

فكتب إليه ابن خالويه : هذا جائز للشاعر ولا سيما إذا يقْصدُ بدِمَشْقَ إلى مدينة فزادها هاء تأكيداً للتأنيث ، كما أن يقال عقرباً مؤنثة بغير علامة التأنيث والعُقْرُبان [2] ذَكَرُها . فقالوا عَقْرَبَةٌ تأكيداً ، فكذلك دِمَشْقُ ودِمَشْقَةُ وذكر يونس وغيرُه . أتانَةٌ وعَجُوزَةٌ وفَرَسَةٌ . كل ذلك تأكيد وقرأ ابن مسعود « تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثى .

---

(١) نخبة كانار ص (٢٨٦) .
(٢) العقرب واحدة العقارب من الهوام يكون للذكر والانثى بلفظ واحد والغالب عليه التأنيث ، وقد يقال للانثى عقربة وعقرباء ممدودا غير معروف ـ لسان العرب (٢ / ١١٥) .

فبعث إليه سيف الدولة يستحضره فلما مثلَ بين يديه قال : أيها الأمير رُبَّ عِلْمٍ كنْتَ سببَه وقد استفَدْتُ دَمِشْقَةَ ، إلاّ أنه في النحو كما ذكرت والعرب تزيد المذكّر بياناً كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم » ابْنُ لَبُون ذَكَر » — وتزيد المؤنّث تأكيداً مثل « نعجة » أنثى » وذكر كلاماً غيره[1] .

إن هذه الأمثلة التي أوردناها تدل دلالةً بيّنَةً واضحةً على شاعرية سيف الدولة وتذوقه للأدب وقدرته على النقد والتمييز . فلذلك لا عجب أن يكثر الشعراء في بلاطه وأن يكون رحابه مُنْتدى الأدباء والعلماء ، فوفد إلى حَلَب الشعراء من شتّى الأمصار والأصقاع يقصدون الأمير الفارس والفتى الشاعر ليستظلوا بظله ويعيشوا في كنفه .

---

(١) الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة — ابن شداد (١ / ١٥ — ١٦) .